وقد عدمنا السمفوني والاوركسترا ولم نقدر ان نُسمع جماعة الاونسكو عزف البيانو لو لم نستقدم من اميركا مغترباً لبنانياً اسمه انيس فليحان ؟ اهو في النحت وليس في حدائقنا تماثيل ، كذلك ليس عندنا حدائق . ومن الاساطير ادعاؤنا ان بلادنا هي موطن الاشعاع الفكري . ان صاحب البصيرة ان طلب ان يدفأ دماغه في الاشعاع الفكري في لبنان ، دنق عقله .

هنا لبنان حيث انتدبنا ألسنتنا لخلق ماوجب ان تصنعه ايدينا.

هنا بلد الجمال واجمل انواع الجمال هو الغلوّ .

ومن الغلوّ والاساطير قولنا ان لبنان بلد الرقي . كيف ندعي الرقيّ وهيكل حكومتنا بنيناه على الطائفية ، والمرأة لا تَنْتَخِب ولا تُنْتَخَب وهاتان ظاهرتان اجتماعيتان اختفتا من بلدان الدنيا إلا من البلدان التي تسكنها الشعوب المنحطة . الف . لام . ميم . نون . حاء . طاء . تاء . والطاء مشدّدة . واللفظة كلها مشدّدة .

تركياً على بعد ضربة حجر منا . ومصطفى كمال عاصرناه وتوفاه الله منذ ربع ساعة فلم نتعلم منه ولا من تركيّاه شيئاً . فقضية المرأة في بلادنا اداة فكاهة سمجة لبعض من يريدون اغتصاب النكتة . وهي ايضاً اداة تبرج اجتماعي لبعض فئات نسائنا المشتغلات بما يسمونه جمعيات . اما القليلات والقليلون الذين يدركون خطورة امر انحطاط شأن المرأة عندنا ، فليس لهم الشجاعة للقول الجريء والعمل الجريء .

بعض الامور لا بديل منها — الشجاعة الجسدية احداها . وان من فواجع حالتنا الاجتماعية ان المفكرين المخلصين جبناء . في بعض المواقف الكلمة افعل من الرصاصة وفي بعض المواقف الكلمة لا

تغني عن الرصاصة . تمد اليد لنصافح من يجب ان تمـــد اليه يداً منكمشةً قبضةً تدمي انفه .

اسمع ان اجدادنا اخترعوا الحروف الابجدية . هذا شيء جميل. ومن الجميل ان نبدأ بتعلم قراءة الحروف الابجدية .

على وجهنا الاجتماعي في الاقطار العربية بثور حجبها لا يشفيها. وان المرأة العربية التي كان من حقها ان تكون شامة في هـــذا الوجه أمست قرحة .

شريف من الدكتور جورج حنا ان يحاول معالجة هذه القرحة في هذا الكتاب . جميل ان نبدأ تعلّم قراءة الحروف الابجدية .

لعل الذي زيّن المؤلف نشر هذه الدراسة اعتقاده ان « ما من احد اكثر معرفة بالمرأة من طبيب المرأة » . هذا قول صحيح يفقه القارىء مغزاه اذ هو يبـــدأ بأول صفحة واذ هو يماشي الحكيم صاحب الكتاب الى آخر كلمة في آخر صفحة .

في الكتاب دراسة علمية ، وفيه شعور انساني ، وغمرة قوميـة وثـّابة تعمر بكل ما يكتبه الدكتورجورج حنا او يقوله او يفعله.

وفي الصفحات الاولى دعوة وجهها المؤلف الى الذين من عادتهم ان يرموا بعض البيوت بالحجارة : أن تفضلوا فارشقوا . لا ادري ما الذي حفز به الى ارسال هذه الدعوة . لعله اليقين في نفسه ان بيته ليس من زجاج .

هوذا كتاب يستحق ان يقرأ بل يدرس .

سعيد تقي الدين

obeikandl.com

بُـثرة أو شـامَة ؟

للشيخ سعيد تقي الدين

« مِهْرِي ! إذَا مِنْ حَافرُو شْرَارَه قَدَحْ
وْصَابْ الفَلِكْ ، مِنْ مَيْلْ للثّاني قَدَحْ
الرَّعـدْ صَوْتُو ، البرقْ قَدْحةْ حَافرُو
وْمِنْ عَكْفْ ذَيْلُو بْيِنْتِصِبْ قَوْسِ القَدَحْ »

هنا لبنان ! هنا ، بشرارة من حافر الحصان نقدح الفلك . هنا يكسد بيع المطارق لاننا ندق المسامير بروؤسنا. هنا يستحيل لعب القمار، لأن اوراق الشدّة تتحوّل كل ورقة منها الى أص بَستُوني، والسبب جودة المناخ. هنا الطائرات تطير في سمائنا على علو مئة الف ميل خوفاً من ان ترتطم برأس واحد منا فتتحطم. هنا نشعل تنباك الاركيلة بجفنة من نجوم. هنا يخرج الراعي بقطيع الماعز في الصباح ويرجع به في العشية قطيعاً من غزلان . والسبب خصب المراعي .

هنا لبنان ، حيث لن تكثر المصانع بسبب اشتغالنا بفبركة الاساطير. ومن الاساطير قولنا ان لبنان هو بلد الفن. اين هو الفن؟ أهو في المسرح وليس عندنا جوقة تمثيلية واحدة ؟ أهو في الموسيقى

كانت الأم في العصور الأولى آلهة ...

obeikandl.com

مُقدّمة الكِتابْ

للدكتور سبيريدون أبو الروس

رغب الي زميلي وصديقي العزيز الدكتور جورج حنا ان افتتح كتابه الجديد (المرأة جسد وروح) بكلمة يضعها مقدمة له. وليس الدكتور، ولا كتابه بحاجة الى وسيط بينه وبين الجمهور، فهو مولّد خبير يمارس عمله منذ زهاء ثلاثين عاماً بمهارة فنّية وسلامة وجدان يشهد له بها الجميع. وهو الى ذلك كاتب مجيد لذيذ الاسلوب، ومفكر اجتماعي واسع الثقافة، ونقّاد جريء يهاجم الجهل والظلم حيثما وجدهما، ويحمل على العادات والتقاليد اذا خالفت منطقه وعقيدته. هذا فضلاً عن ان له من مؤلفاته السابقة، ومن مقالاته في (نشرة المؤتمر الوطني)، ما يغنيه عن اي مقدمة كانت.

ولكنه رعاه الله تناسى كل ذلك والحّ عليّ في الطلب. ولعله أراد ان يسجّل في سفره هذا، قبل الافتراق الأخير، ذكرى للصداقة المتينة المتبادلة، ولوحدة النزعة والتفكير التي تربط احدنا بالآخر، فنزلت على رغبته وكتبت ما يلي شاكراً له حسن ظنه بي وجميل عاطفته وشعوره.

لقد قرأت هذا الكتاب الصغير في حجمه والكبير في ما انطوى عليه من مباحث وافكار، قرأته بلذة واعجاب شأني في كل ما

يكتبه « الحارث بن يحيى » (١) ، فألفيته صورة صادقة عما اعهده فيه ويجيش في صدره من ثورة على ظلم المجتمع ، ودفاعاً رائعاً عن المرأة الشرقية المظلومة ، ونداءً حاراً لإنصافها والمطالبة بحقوقها الطبيعية المساوية .

لقد اثبت الدكتور حنا ، في كل صفحة من صفحات كتابه ، انه المحامي العلمي رقم ١ عن المرأة في الشرق في جميع مراحلها وحالاتها ، لانه بنى دفاعه هذا على اعتبارات علمية وملاحظات اجتماعية معقولة ، وعلى اختبار شخصي طويل ، واحتكاك مستمر بالاوساط النسائية بحكم اختصاصه الفني ؛ اذ كما يقول ، وقوله حق ، « ما من احد اكثر معرفة بالمرأة من طبيب المرأة » .

يتساءل الدكتور في التوطئة عن وقع كتابه لدى القراء ، ويتوقع طبعاً في قرارة نفسه نوع الجواب فيقول: « قد تثور ثورة التقاليد على ما يجيء في بعض هذه الأبحاث . » ولكنه رجل يهزأ بالخرافات ولا يؤمن بغير العلم وحقائقه ؛ فيرد على هذه الثورة المنتظرة بثورة عنيفة مثلها ، ويضيف: « ولكن ليس بوسع التقاليد ان تطمس الحقائق الى الأبد ، ولا بمقدورها الاستمرار في تجاهل ما يثبته العلم . فالعصر الذي نعيش فيه عصر علم لا عصر تقاليد . »

ولا ريب في ان الافكار التي بثها الدكتور في تضاعيف كتابه بلهجته المعروفة ، ستثير عليه احتجاجات صاخبة ، بل حرباً عواناً في بعض الاوساط والفئات المختصة ، ولكنها ستصادف بلا شك ايضاً رضىً وقبولاً حسناً في الاوساط النسائية الناهضة والشباب المثقف الراقي . على ان كلا الفريقين سيتفقان حتماً على انه باحث

---

(١) اسم مستعار للمؤلف يوقع به بعض مقالاته في الصحف .

مخلص في اندفاعه وعقيدته ، لا يتوخى من نشر افكاره على هذه الصورة سوى خدمة المجتمع « بخدمة العامل الذي يشكل نصف قواه ، والذي لا غنى عنه لتقدم الانسان وارتقائه » وهو المرأة .

في الكتاب ، بموجب عنوانه ، ناحية طبية « جسدية » تشتمل على وصف موجز ، ولكنه كاف لغير الطبيب ، للجهاز الجنسي الانثوي ، والاعضاء التي يتألف منها ، والوظائف التي تقوم بها متسلسلة من تكوين البويضة الى تكوين الجنين وتغذيته ، مما لايجوز ان يبقى محجوباً عن علم الفتاة ، لانها « اذا كانت تعرف كما يعرف الفتى ان الطبيعة اوجدت لها عيناً لتبصر ، وفماً لتأكل ، ولساناً لتتكلم ، واذناً لتسمع ، ومعدة لتهضم ، فلماذا نريدها جاهلة هذه الاعضاء ، والغاية من وجودها في جسمها ؟ » وقد شرح المؤلف باقتضاب كيف تشترك الاعضاء المذكورة في العمل لتؤدي الى النتيجة التي فرضتها عليها الطبيعة ، وهي ولادة الطفل . وهنا يقف هنيهة ليصف هذا المخلوق العجيب — الانسان — وصفاً غريباً احيل القارىء اليه بصورة خاصة ، ويتساءل : « كيف وجد ، وكيف تربى ، ومن احاطه بعنايته ؟ امور يجب ان يعرفها المجتمع الراقي ولا سيما المرأة التي لها اليد الطولى والدور الأهم في تحضيرها وتنسيقها ، لانها اذا لم تكن هي وحدها علة وجود الانسان ، فهي مهد نشأته . ففي احشائها تكوّن ، ومن دمها تغذّى . »

وفي سياق بحثه التشريحي هذا يشير الى ما يعتري الجهاز النسائي من حالات مرضية ، خاصاً بالذكر سرطان الرحم ، اكثر السرطانات وقوعاً ، وانسداد القناتين ، احد اسباب العقم ، والتهابات الثديين الصديدية .

ويتصل بالناحية الجسدية ايضاً وصايا صحية تتعلق بالزواج

وشروطه . وقد اصاب المؤلف في اقتراحه الرقابة الصحية على المتزوجين ، واشتراطه شهادة من طبيب مسؤول تثبت سلامتهما من العلل التي تنتقل بالوراثة كالافرنجي مثلاً ، ورجا الحكومة ان تتبنى هذه الطريقة الحكيمة المتبعة اليوم « فيأتي عملها في مصلحة الأمة ويكفل لها نسلاً صالحاً » .

ويدخل تحتها ايضاً بحث لذيذ عن وجوب التناسب بين عمري الزوجين ، واضرار الزواج الباكر ، واختيار الزوج اختياراً مبنياً لا على الحب او المصلحة بل على صحة الزوج واخلاقه .

وهناك فصل ممتع عن التزاوج بين الاقرباء واخطاره على روح التساهل وسلامة النسل،ينتهي بهذه الوصية الذهبية : « يجب اختيار العنصرين ليتزوج الصحيح من الصحيح . اما الفاسد فسلّمه للنظام الهتلري ليقضي عليه بعدم التناسل ، فخير للبشرية ان ينقص العدد ويحسن المجموع ، من ان يسوء النوع وتكثر الشعوب . »

ويخلص الدكتور الى بحث رائع مؤثر في الامومة « اشرف حلقة في حياة المرأة، وأقدس دور من ادوارها » فيعالج فيه الحبل ومدته ، والعناية بالحامل وطعامها والامراض الخاصة بها، وتأثيرات الحبل على صحتها . ويختم بحثه هذا بعشر وصايا صحية للحامل اظن انها أثمن ما قيل في هذا الموضوع ، خصوصاً الوصية العاشرة التي لا اتمالك عن نقلها هنا ، وهي: « الحامل أم لمولود قد يأتي منه لأمه ولأمته وللبشرية جميعاً ، خير عميم. فلتعنَ به في احشائها، ولتحرص عليه ، فكل ما فيه من فضل عنايتها . »

ويتبع بحث الحبل بحث الولادة ، هذا الحادث الخطير الذي « بارکته العناية، واهّلت المرأة لاحتماله والصبر على اوجاعه » فيجد

فيه القارىء نبذة تاريخية بليغة عن التوليد والادوار التي مر بها ، منذ القرون الوسطى الجاهلة اذ « كانت السلطات الروحية تعتبر الولادة وما يرافقها من عذاب وآلام كفّارة عن الخطيئة الاولى التي ارتكبتها حوّاء . وعلى هذا كانت المولدة تُترك لتقاسي اشد العذابات وشر الاخطار » ، الى هذا العصر الذي يصح ان نسميه العصر الذهبي حيث « اخذت العناية بها تتطور يوماً بعد يوم ، ولم يعد ينظر الى الولادة ككفّارة عن خطيئة ارتكبتها المرأة بل كبركة خصتها بها العناية . اما المزمور الحادي والخمسون القائل : ها انذا بالاثم صُوّرت وبالخطيئة حبلت بي أمي ، فقد اصبح بنظر العلم من الترهات المضحكة المحتقرة » .

ويلي ذلك وصايا عن الولادة في البيوت ، وواجبات القابلة ، وتعسر الولادة ، وحمى النفاس وفضل الطب الحديث في الوقاية منها . ثم الرضاعة وانواعها ، والرضاعة الاصطناعية بحليب البقرة المعقم وصورة استعماله للاطفال حسب اسنانهم . وينتهي بحث الامومة بفصل خاص بسن اليأس (المينوبوز) ، وسرد الحالات المرضية التي تعتري المرأة بعد الخمسين ، واهمها سرطان الرحم ، والاختلالات النفسية والعقلية التي تعقب انقطاع الحيض وعلاجها. وهنا يلاحظ المؤلف ان المرأة اذا انتهت في هذا الدور من حياتها التناسلية ومشاغلها ، يمكنها الخروج بعده الى افق اوسع ومواصلة العمل في ميادين الحياة المختلفة « بحيث تجعل من مرحلتها الجديدة دوراً اجتماعياً مثمراً ، كما كانت مرحلتها التناسلية دوراً مثمراً في حفظ النسل وسلامة الذرية » .

هذا ما يتعلق بالشق الاول من الكتاب ، وهو جسد المرأة . ولكن هناك بحثاً آخر اجتماعياً يتناول شقه الثاني وهو روحها. فاذا

كان القسم الاول ، عـــلى جليل فائدته ، من المعلومات الدراسية المعروفة والمجمَع عليها ، فالقسم الثاني في معظمه وليـد تأملات الكاتب واستنتاجاته الفلسفية الخاصة ، التي تشكّل النصف الأعمق والأغرب من السفر، والتي تتجلى فيها بكل وضوح شخصية المؤلف واستقلاله الفكري .

ففي هذا القسم يحمل بكل ما أوتي من قوة وجرأة على الأوهام والخرافات الدائرة حول المرأة ، محاولاً تهديمها بصراحة في النقـد وعنف في العبارة ، ذكّراني بهجمات اللبناني الآخر المأسوف عليه الدكتور شبلي شميّل. وستكون طبعاً تلك المحاولات محوراً لنقاش عنيف بينه وبين الاوساط « المحافظة » التي لا ترى رأيه .

فالدكتور حنا يعتقد ان الرجل والمرأة صنوان متساويان ، وان تقصيرها عنه ليس من عمل الطبيعة، بل من عمل الانسان نفسه، وأثر الضغط التربوي عليها ، نتيجة للاسطورة التكوينية « الجانية » التي جعلت من الرجل نفخة في رماد، ومن المرأة ضلعاً من اضلاعه .

ويتساءل الدكتور عن السبب . وفي الواقع ان هناك مجالاً لاستفهام يصعب الجواب عليه . فاذا كان الرجل والمرأة متساويين في الاصل ، فكيف امكنه اصطناع الاسطورة المذكورة حتى تغلب عليها ، وفرض سيادته عليها بالقوة وانتزع منها المساواة ؟ وهل كان هناك حقاً عراك وكفاح فيما بينهما او بينها وبين الطبيعة التي فرضت عليها وظائف مضعفة خلا منها الرجل ؟

ومهما يكن السبب البعيد في هذا الضعف ، فمما لا خلاف فيه ان تربية الفتاة القديمة كانت عنصراً عظيم الاثر في انحطاطها ، كما ان الاهتمام بها في الشعوب الغربية الراقية قد رفع مستواها الجسدي

والعقلي ، وسهّل مساواتها بالرجل في اكثر ميادين الحياة . ويستخدم الدكتور معارفه الفنية لينادي المرأة بثقة الواقف على الحقيقة ، ويقول لها : « انها ليست ضلعاً من اضلاع الرجل ، بل وجدت بالطريقة نفسها التي وجد بها الرجل . نشأت مثله وارتقت مثله . ونحن اليوم في عصر العلم والبحث نعلم ان التكوين على الصورة التي شرحها سفر التكوين ، اسطورة وخرافة . » ثم يلتفت الى محيطه الشرقي فيقول : « انهم قيدوا المرأة وحرموها وسائل التقدم فنشأت ضعيفة ذليلة ، وكان ذلك العامل الاكبر في تأخر التمدن الشرقي ومجتمعه . ولو سئلت عن السبب الاساسي في تأخر المرأة الشرقية ، لأجبت فوراً الجهل . » وفي رأي الدكتور ان حرمان الفتاة من درس كيانها الطبيعي وتطوراتها الجنسية بحجة المحافظة على ادبها وعفتها خطأ جسيم . « ولو عقلوا لأدركوا ان ما من خطر على الاعراض كخطر الجهل » . والفتاة المتعلمة الحائزة على التنوير الجنسي لا تحتاج الى من يحرسها بل هي حارسة نفسها ، ولذلك يطالب بادخال هذه الدروس في برامج التعليم ، مستشهداً بالولايات المتحدة التي انشأت في مدارسها فرعاً خاصاً بها ، فكانت النتائج حسنة ومشجعة في الحياة الاجتماعية والزوجية والعائلية .

قلت ومن الغريب ان يقوم اليوم في بعض الاوساط الاوروبية الراقية معارضة تقاوم هذه الفكرة ، فقد ورد في الصحف مؤخراً ان الامهات في انكلترا احتججن على هذه الدروس وطالبن الحكومة بتعطيلها اجتناباً لاخطارها الادبية .

وينتقل الدكتور بعد هذا الى الكلام عن الزواج ، وعن قدسيته التي احتفظ بها «وسط كل المؤثرات الاجتماعية ، وتحت ضغط كل الانظمة» ، وعن الشروط التي يجب ان تتوفر فيه ليؤمن السعادة

للزوجين ، والسلامة للنسل ، ويكون « واسطة خـــير وبركة ، لا واسطة ويل ولعنة » .

اما عقد الزواج فيرى ان تتولاه هيئة رسمية مسؤولة ، بعـد استكمال جميع الشروط الصحية والاجتماعية ، وان تكتفي الكنيسة بمنحه البركة : « عقد مدني ، وبركة روحية ، ورابطة يحرسها القانون ويباركها الدين » .

ويتابع حديثه فيعقد فصلاً على جانب عظيم من الخطورة ، تحت عنوان « كل ابنة مصيرها للزواج » ، فيقول ان الزواج من ضرورات الحياة للمرأة . وان المجتمع مجبر على إجابة الطبيعة الى تطلّبهـا ، وان الابنة التي قست عليها الظروف فلم تتزوج ، كثـيراً ما تقع فريسة لاختلالات جسدية وعقلية وروحية . وهنا تثور عاطفة طبيبنا الرقيقة فيلقي دفاعاً بليغاً لاهباً عن هذه الفتاة التعيسة وعن الحرية الجنسية التي حللها المجتمع للرجل وحرّمها على المرأة عمـلاً بقوانين ربطوها بالاديان والشرف والاخلاق ، ويقول ان المجتمع مسؤول عن حياة الفتاة ، وانه ليس من العار عـلى العانس ولا من الفساد ان تأخذ قسطها من المعيشة الذاتية التي فرضتها الطبيعة ، اذا هي تهذبت وبلغت ثقافتهـا المستوى الراقي .

ويندفع في ثورته الجميلة هذه الى ابعد من ذلك فلا يرى لها جريمة اذا هي طمحت الى الامومة المقدسة ، ولا يعتبر وليدها ابن سفاح وولداً غير شرعي ، ولا يفهم معنىً للولادة غير الشرعية . « ان الطبيعة لا تعرف الشرائع . والمولود ابن الطبيعة ، لا ابن الشرع . والاولاد كلهم شرعيون » .

ان الدكتور ينظر الى هذه القضية الشائكة من زاويته الخاصة ،

ويقترح درس هذه المشكلة المعقدة من قبل الهيئات المختلفة للوصول الى حل انساني عادل ، على ان في نظريته اموراً دقيقة من العسير تطبيقها في المجتمع الحاضر، ولا سيما في البلاد الشرقية حيث تصطدم بفكرة العائلة التقليدية ، وحيث يُخشى من ثورة تقلب الاوضاع الاجتماعية رأساً على عقب .

وفي الكتاب ، عدا ما تقدم ، فصول وصفحات شائقة ، تدل على طول باع مؤلفه في البحث وتجمع بين الفائدة واللذة . من ذلك فصول في فلسفة الزواج والحب ، والتزاوج بين مختلف الطوائف للقضاء على التعصب الديني ، علة الشرق ، وبحث ممتع بعنوان « الزواج عهد وعقد » حلّل فيه السعادة الزوجية وتعاستها ، وبرّر الطلاق في ظروف معينة ، وقابل بين موقف بعض الطوائف المسيحية وبعض الطوائف المحمدية منه .

اما بيت القصيد فأبحاثه في الامومة ، والولادة ، والرضاعة . ففي هذه الفصول الثلاثة الأخيرة ، تتحوّل صلابة الدكتور الى شاعرية عذبة ، وشعور رقيق مكبوت. فاذا تكلم عن الأم ، والمولدة ، والمرضع والرضيع ، تراه يفيض رأفةً وعطفاً وحناناً. وفي الابيات الجميلة الثلاثة التي ذكرها في معرض حديثه عن الرضاعة، وفيها يصف الشاعر روعة الأم تضم الى صدرها رضيعها لتغذيه، دليل ناطق على ما يكنّ صدره من عاطفة مؤثرة ، وحنوّ انساني عميق .

ايها القارىء الكريم

لقد قدمت اليك كتاب الدكتور جورج حنا ، ونقلت لك نتفاً منه لأدلّك على طرافته وقيمته العلمية والادبية . ولو انصفت

واتسع المجال لحولت معظمه الى المقدمة ، فكل ما فيه حري بالنقل والاستشهاد . ولكني اكتفي بما سبق واقول لك : خـذه وطالعه تجد مصداق ما ذكرته لك من حسناته . ولا بأس ان يصدمك في بعض صفحاته اتجاه غريب ، أو لهجة ثائرة لا تنطبق عـلى تفكيرك الخاص . فلكل منا عقيدته ورأيه ، والحق بالجهر بهما . والحقيقـة بنت البحث والانتقاد والتساهل. اقرأه اذاً وانا على يقين بأنك اذا بدأت به في ليلك فلن يسقط من يدك قبل ان تبلغ الحرف الأخير منه ، وحتى يتبين لك الخيط الابيض من الخيط الاسود . والسلام عليك.

١ آذار ١٩٤٩ الدكتور

ن. ابو الروس

opeikandl.com

توطئة

منذ عام ١٩٢٠ وانا استعين بمهنتي ومستشفاي على مشاركة الطبيعة في اكثار الجنس البشري ، استقبل المواليد ، ولداناً وولائد ، حتى اذا رأيتهم يطأون عتبة الحياة ويفتحون عيونهم للنور ، أبشُّ لهم فيبكون .. ترى من منا نحن الاثنين يعبّر عن حكمة الوجود ، أنا في بشاشتي ام الوليد في بكائه ؟

ولطالما واجهتني عقبات اعترضت عملي ، كنت اذلّل منها ما يساعدني العلم على تذليله ، ويغلبني منها ما يقصّر العلم عن ادراكه ، فيشكرني الناس او يشكون مني على قدر ما يجنون من عملي ، ان ربحاً او خسارة .

وكان يلذّ لي ان اقرأ في وجوه الناس حولي ، وادرس ما في قرارة نفوسهم من فرح او كدر او لا مبالاة

لمحصولٍ نتج بعد موسمٍ طالت العناية به الى تسعة شهور ، ولطالما خرجت من مشاهداتي بدروسٍ اختبارية في تحليل العقلية المسيطرة على مفاهيم الناس الاجتماعية وتأثيرها على حياتنا العملية .

وكانت اولى دروسي ، ولربما اهمها ، تلك التي كنت اتابعها في كل يوم عندما اعلن على الحاضرين نوع المولود الجديد . بشرىً يختلف صداها من فرح وابتهاج وزغردة الى وجوم وعبوس يبلغ احياناً حدّ الغمّ والبكاء . صبيّ يفرحون لولادته ويتمنون له السلامة وطول العمر ، وابنة يحوّلون الدعاء لأمها دونها ، مغدقين على الأم شتى التمنّيات المعتادة : « السلامة غنيمة » « ان شاء الله العودة بعريس » « كان بدنا كان صبي » عبارات تأتي على ألسنة الناس عفواً بقصد المجاملة والترويح عن النفس المتألمة .

ولكنها غريزة في النفس هذه السعادة التي يشعر بها الانسان لدى ولادة المولود اذ يرى فيه تكملة لمروره في الدنيا ودليلًا على بقائه في الوجود . وهو عندما يجابَه بالواقع الاجتماعي الحاصل من هذا التنويع ينتابه صراعٌ بين العاطفة البشرية وبين الواقع الاجتماعي ، صراعٌ بين غريزة الحبّ واحكام المجتمع الذي يعيش فيه ، صراعٌ بين الطبيعة

وبين المتحايلين على الطبيعة ، صراعٌ منشأه الحيلولة دون سير ناموس التطور الطبيعي ، وبالتالي دون سير التطور الاجتماعي في عالم الانسان .

ان حب الوالدين لبناتهم لا ينقص عن حبهم لبنيهم ، وقد يزيد لما في طبيعة الابنة من المحببات . ولكن المجتمع يأبى الاّ ان يصارع هـذا الحبّ بغية اخضاعه لشرائعه وكيفيّاته .

يرغب الأب في ولدٍ يرث ماله ويحمل اسمه واسم اسرته. وتقول الأم : لا ارغب في ابنة سيكون نصيبها من الدنيا كنصيبي . ويرغب الاهل في صبي لان الصبيان دعائم الاسر ، والاسرة ، لا سيما في الشرق ، وحدة لا تتجزأ .وكتلة لها قوتها في المجتمع ، يتكاتف اعضاؤها في الملمّات ويتساعدون على الخير والشرّ ، ولطالما كان التكتل الاسري للغرض الثاني اكثر مما هو للغرض الاول ، ومن هـذا نشأ قول العامّة ، لدى ولادة الصبي : « ان الاسرة الفلانية زادت بارودة » وكلام العامّة من فلسفة الاجيال . وتفضيل الابن قائم على فكرة الاستئثار ، الاقطاعي يرغب في دوام عزّه وسلطانه ، والرأسمالي يرغب في احتكار الاموال في خزائنه وخزائن اولاده ، والبنون هم الوارثون ، والبنات « بنوهن

ابناء الرجال الاباعد » . وهكذا يضحّى نصف الناس من اجل النصف الآخر رغم انف الطبيعة ونواميسها .

هو صراعٌ بين الحقيقة العلمية الطبيعية وبين الاوضاع الاجتماعية الكيفية ، لا تسلم منه هذه الاوضاع نفسها من التفكك المؤدي حتماً الى ركود المجتمع او رجوعه الى الوراء .

هي قسوة المجتمع تدفعه الى محاولة انكار المساواة بين اعضائه ، يجامل الواحد ويحرم الآخر ، يقوّي الابن ويضعف الابنة ، على الرغم مما في ذلك من خروجٍ على ناموس الطبيعة الخلاّق .

ان المجتمع في محاولته تحويل سير ناموس الطبيعة عن مجراه يحرم نفسه من عامل لا غنى له عنه لتقدمه وارتقائه . واذا عرف المجتمع ان هذا العامل الذي يحرم منه نفسه يشكل نصف قواه ، ادرك عندئذٍ أي خطأ يرتكبه من استمراره في تجاهل الحقيقة الطبيعية من ان المرأة والرجل صنوان لا يفضل واحدهما الآخر الاّ في قدرته على العمل في سبيل النفع العام .

ليس الضعف غريزة في المرأة ، ولا المسكنة صفة خلقيّة

فيها ، انما ضعفها ومسكنتها صفتان مكتسبتان من قسوة المجتمع عليها . فهو عندما ينكر عليها حقها الطبيعي ، ويحرمها طلاقة الحياة ، ويبخل عليها بما يغدقه على الرجل من النعم المادية والروحية ، ويتحكم بمصيرها ومشاعرها ، عندما يفعل كل ذلك ، يزرع فيها بذور الضعف ، فيطغى عليها شعور النقص ليرغمها على السكوت عن الظلم اللاحق بها . ومن الحقائق العلميّة التي يثبتها البحاثون ان هذه الصفات المكتسبة ، بتفاعلها على مدى الاجيال ، تصبح من صفات الجنس الموروثة .

ما من احدٍ اكثر معرفة بالمرأة من طبيب المرأة . فهو بمرافقته اياها من يوم تولد الى ان تشبّ فتتزوج فتلد ، وباطّلاعه على حالاتها المرضية واسرارها الجنسية واختلاجاتها النفسية ، يأخذ عن ذلك دروساً لا خير من ابقائها محجوبة بجدارٍ من الاوهام والاساطير .

انا لا اعلم كيف سيستقبل القراء هذا الكتاب . ففي متنه ابحاث علميّة حان للمرأة ان تعرفها . وفيه ابحاث نفسية من الحيف ان تبقى الفتاة غافلة عنها . وفيه ابحاث اجتماعية لا يجوز للمجتمع ان يتنكر لها .

قد تثور ثائرة التقاليد على ما يجيء في بعض هذه

الابحاث . ولكن ليس بوسع التقاليد ان تطمس الحقائق الى الابد ، ولا بمقدورها الاستمرار في تجاهل ما يثبته العلم . فالعصر الذي نعيش فيه عصر علم لا عصر تقاليد . الفلك لن يبطل دورانه ، وعقرب الساعة لن يقف ، ومن يستهويه الجمود محتوم عليه الانقراض .

ان في الشرق نهضة نسائية مباركة ، ولكن في الشرق ايضاً مواريث من الرجعية تعرقل سير هذه النهضة . فان لم يتحرّر الشرق من بقايا الرجعية ، عبثاً يطمح الى ان يتبوأ مركزاً لائقاً في العالم الجديد .

وانا اذ اقدم على وضع هذا الكتاب بين ايدي القراء والقارئات ، اتغافل عمّا قد يثيره من الانتقاد ، لعلني اقوم بقسط متواضع من النضال في سبيل تحرير المرأة العربية ونهضتها المنشودة .